تعلّق الجمل في الكشاف للزمخشري(ت538هـ)

أ.م.د. هاشم جعفر حسين الباحث. تحسين مطلك صالح

جامعة بابل/ كلية التربية للعلوم الإنسانية جامعة بابل/ كلية التربية للعلوم الإنسانية

The Connection Between Sentences in the Zamaksharie's Al-Kashaf

Asst.Prof. Dr. Hashim Ja'afar Hussain Researcher. Tahseen mutlak Salih

Abstract

The connection between sentences has been tackled by some books before Al-Kashafm, but this type of connection has been tackled by Al-Zamakshary as a distinguishing feature in his book. The study deals with the discussions between grammarians about the connection between sentences in Al-Kashaf. The study is divided into two sections: the first about the sentences that begin with nouns and the other deals with sentences that begin with verbs.

توطئة

إنّ تعلق الجمل بعضها ببعض قد ورد في كتب التفسير التي سبقت الكشاف، غير أنّ هذا النوع من التعلُّق قد كثُر عند الزمخشري، مما يشكل سمةً بارزةً في تفسيره، وهو ممّا دفعني إلى دراسة الموضوع في بحث يحاول تسليط الضوء على اجتهاد الزمخشري في هذا الجانب، الذي فاق فيه غيره، إذ اقتصر النحويون والمفسرون على مبحث تعلق شبه الجملة.

ثم محاولة الكشف عن ما دار بين المفسرين من مناقشة وأخذ وردّ في المسائل التي تخص التعلق في الكشاف. ومن دراسة مواضع هذا التعلُّق – بحسب مادة البحث المجموعة – تبين أنها ممكن أن تقسم على مبحثين، الأول: تعلّق الجمل الاسمية، والآخر: تعلق الجمل الفعلية، وسيعرض الباحث لدراستها على النحو الآتي:

المبحث الأول: تعلق الجمل الاسمية

ومن أمثل ما ورد عند الزمخشري من هذا التعلق ما يأتي:

1- تعلق جملة اسمية بجملة اسمية

في قوله تعالى في شأن المنافقين: ﴿وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آَمَنُوا قَالُوا آَمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا إِلَى شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ﴾[1].

علَّقَ الزمخشري الجملة الاسمية: (إنما نحن مستهزئون) بالجملة الاسمية (إنا معكم)، على أن الجملة الثانية في الآية الكريمة توكيد للجملة الأولى، قال: ((فإن قلتَ: أنّى تعلَّقَ قولُه: (إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ) بقوله: (إِنَّا مَعَكُمْ). قلتُ: هو توكيد له، لأنّ قوله: (إِنَّا مَعَكُمْ) معناه الثبات على اليهودية. وقوله: (إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ) ردّ للإسلام ودفع له منهم، لأنَّ المستهزىء بالشيء المستخف به منكرٌ له ودافع لكونه معتداً به، ودفع نقيض الشيء تأكيد لثباته)).[2] وتبعه في ذلك الرازي (606 هـ)، وابن عادل (775هـ)[3].

ومما يسند أن الجملة الثانية توكيد للأولى أنها أُكِّدَت بمؤكدات متعددة هي: الحكم بأنهم يستهزئون بالدين وأهله، ومَن استهزأ بعقيدةٍ ما فقد حقَّرها واعتدَّ بما يعتقد وعظّمه. والمؤكدات الأخر: (إنَّما) التي تفيد الحصر والتوكيد، وضمير الفصل (نحن) الذي يؤتى به لتوكيد الحدث، والمبتدأ المُخْبَرُ عنه باسم الفاعل (مستهزئون) ((الذي يدلُّ على الثبوت، وأنَّ الاستهزاءَ وصفٌ ثابتٌ لهم، لا أنَّ ذلك تَجَدَّدَ عندهم، بل ذلك من خُلُقِهِم وعادتِهم مع المؤمنين)) [4]. ومن حيث الإعراب فالجملة (إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ) عطف بيان لجملة (إنا معكم) أو بدل منها، وهي جملة داخلة في حيز القول في محل

(1) سورة البقرة / الآية 14.
(2) الكشاف 1 / 66.
(3) ينظر: مفاتيح الغيب 2 / 309، واللباب في علوم الكتاب 1 / 363.
(4) البحر المحيط 1 / 114.

نصب منها [1]. ولا شك في أن عطف البيان أو البدل بما يتضمن كل منهما من معنى الإيضاح هو توكيد لما قبله في المعنى، إلا أن بعض المفسرين ذهبوا إلى أن الجملة الثانية مستأنفة استئنافاً بيانياً غير داخل في حيز الأول فلا محل لها من الإعراب، إذ هي جواب لرؤسائهم أي: هي ردٌّ على سؤال نشأ من ادِّعاء المعية، كأنهم لما قالوا للكافرين (إنا معكم) سألهم هؤلاء: فما بالكم مع المؤمنين في دينهم ؟ فأجابوهم بجواب مستأنف مقطوع عما قبله [2]، وعلى هذا التوجيه لبعض المفسرين لا تعلق بين الجملتين.

ويرى الباحث أنّ ما ذهب إليه الزمخشري من أن الجملة الثانية (إنما نحن مستهزئون) لها محل من الإعراب، وأنها داخلة في حيز القول على معنى التوكيد هو الراجح، لأن ذلك ينساق ومعنى التوكيد في عموم الآية الكريمة، إذ الحديث معقود فيها لبيان صفة من صفات المنافقين، وهي المداهنة بإظهار شيء وإخفاء خلافه، فإذا رأى هؤلاء المؤمنين قالوا: (آمنَّا) بما أنتم به مؤمنون كذباً وزوراً، وإذا اجتمعوا بأصحابهم من المتمردين والكفار قالوا: (إنا معكم)، ويشهد لنفاقهم التفريق بين خطابهم المؤمنين وخطابهم الكفار، إذ استعملوا الجملة الفعلية (آمنا) حين لقوا المؤمنين، وهي جملة دالة على التجدد والحدوث، لا توكيد فيها، فـ((ليس ما خاطبوا به المؤمنين جديراً بأقوى الكلامينِ وأوكدهما، لأنهم في ادّعاء حدوثِ الإيمان منهم ونَشْئِهِ من قبلهم، لا في ادعاء أنهم أوحديونَ في الإيمان))[3].

أما حين يخاطبون إخوانهم من الكفار فيتحول نمط الكلام إلى جملة اسمية (إنا معكم) دالة على الثبات، إذ ((هم فيما أخبروا به عن أنفسهم، من الثبات على اليهودية، والقرار على اعتقاد الكفر، والبعد من أن يزلُّوا عنه، على صدق رغبة ووفور نشاط وارتياح للتكلم به))[4].

ثم انتقلت الآية الكريمة لتوكيد صفة النفاق هذه، وثباتها عندهم، فأتمت هذا القول وبينته بجملة اسمية مؤكدة بعدة مؤكدات (إنما نحن مستهزئون)، أما القول بأنّ هذه الجملة مقطوعة عما قبلها فهو مما يضيع هذه المعاني المقصودة.

2- تعلق جملة اسمية بجملة فعلية

في قوله تعالى مخاطباً المشركين: (قُلْ أَتَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَاللَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ)[5].

قال الزمخشري: (((والله هُوَ السميع العليم) متعلقٌ بـ (أ تعبدون)، أي أتشركون بالله ولا تخشونه، وهو الذي يسمع ما تقولون ويعلم ما تعتقدون، أو أ تعبدون العاجز والله هو السميع العليم الذي يصح منه أن يسمع كل مسموع ويعلم كل معلوم، ولن يكون كذلك إلا وهو حي قادر))[6].

فقد علق الزمخشري الجملة الاسمية (والله هو السميع العليم) بالجملة الفعلية الاستفهامية (أ تعبدون). وتبعه في هذا التعلُّق النسفي (710 هـ) والسمين الحلبي (756 هـ) وابن عادل[7].

ولم يبيِّن الزمخشري في نصه المحل الإعرابي للجملة الاسمية صراحة، ولكن العلماء بعده حينما عرضوا لرأيه، استنبطوا منه أن محل جملة (والله هو السميع العليم) أنها حال من فاعل (تعبدون) والواو رابطة لجملة الحال بصاحب الحال[8]، أي: أ تشركون بالله، والحال أنه هو المحيط بكم، إحاطة تامة، فهو السميع لأقوالكم المجيب لدعواتكم، والعليم بحاجاتكم وسائر أحوالكم [9].

(1) ينظر: الدر المصون في علوم الكتاب المكنون 1 / 147، واللباب في علوم الكتاب 1 / 362.
(2) ينظر: الدر المصون 1 / 147، واللباب في علوم الكتاب 1 /362، والمجتبى من مشكل إعراب القرآن، ، وإعراب القرآن وبيانه، 1 / 38.
(3) الكشاف 1 / 66.
(4) المصدر نفسه 1 / 66.
(5) سورة المائدة / الآية 76.
(6) الكشاف 1 / 665.
(7) ينظر: مدارك التنزيل وحقائق التأويل 1 / 466، والدر المصون 4 / 380، واللباب في علوم الكتاب 7 / 465.
(8) ينظر: الدر المصون 4 / 380، واللباب في علوم الكتاب 7 / 465، وإرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم 3 / 68، والتفسير الوسيط لطنطاوي 4 / 245، وروح المعاني، الآلوسي 3 / 374، وإعراب القرآن وبيانه 2 / 537.
(9) ينظر: مواهب الرحمن في تفسير القرآن، السيد عبد الأعلى السبزواري 12 / 78.

ففي الآية الكريمة خطاب واحتجاج على من اتخذ إلهاً من دون الله تعالى، فإن عامة الناس – إلا من كان له نوع من معرفة في عبادة الله الواحد الأحد – إنما يعبدون الرب، ويخضعون له طمعاً في دفع الشر عنهم، أو جلب النفع لهم، فإذا لم يتمكن المعبود من ذلك، فلا وجه لعبادته والاستفهام للإنكار، أي: أ تشركون بالله وتعبدون شيئاً من دون الله، فقوله تعالى: (والله هو السميع العليم) مؤكد للإنكار والتوبيخ والتعجب الذي أوحته همزة (أ تعبدون) ومقرر للإلزام والتبكيت [1].

ومجيء هاتين الصفتين (السميع العليم) في غاية المناسبة، لأنه يسمع ما يُشتكى إليه من الضر، وطلب النفع، ويعلم مواقعهما كيف يكونان [2]، ويرى ابن عرفة (803هـ) أن المناسب هنا وصفه بالقدرة، لأن العلم والسمع إنما يناسبان من قصد التستر والاختفاء، وهؤلاء تعنتوا وتجوزا، والمناسب فيهم الانتقام، والقدرة والمقدور، وخرجه على أنه من حذف التقابل، والتقدير: قل أ تعبدون من دون الله ما لا يملك لكم ضراً ولا نفعاً ولا يسمع ولا يعلم، والله هو مالك الضر والنفع وهو السميع العليم [3].

ورأي ابن عرفة هذا مردود، لأن الآية تشتمل على نفي ألوهية غير الله تعالى وأنها عامة تشمل جميع ما يُعبَد من دون الله، سواء كان من البشر أم من الأوثان والأصنام، كما هو ظاهر كلمة (ما) التي تشمل الجميع، وكذلك تشتمل على برهان الإمكان الأشرف الذي هو من البراهين القويمة على وحدانية الله تعالى، ونفي التشريك عنه عزّ وجلّ، وقاعدة الإمكان الأشرف يستدل بها على إثبات واجب الوجود المتصف بجميع صفات الكمال، والمنزه عن جميع النقائض، وإنما ذكر هاتين الصفتين (السميع العليم)، لملازمتهما لصفات الكمال، فإنهما تستلزمان الحياة والقدرة والربوبية والقيمومة والإرادة وغيرها، و إثباتهما له عزَّ وجلَّ يستلزم إثبات النقص والعجز لغيره، ولا تصح عبادة العاجز [4].

على أن من المفسرين مَن لم يرَ تعلقاً بين الجملة الاسمية والجملة الفعلية قبلها وإنما الكلام على الاستئناف، وذلك ببيان وجه آخر في إعراب الجملة الاسمية (والله هو السميع العليم) أنها استئنافية لا محل لها من الإعراب[5].

ويظهر للباحث أن رأي الزمخشري ومَن تابعه هو الأقوى هنا، ذلك أن الحال الجملة الاسمية (والله هو السميع العليم) بثباتها وتوكيدها، وارتباطها بما قبلها، وتعلقها به قد ناسب غرض الكلام، فالآية الكريمة تتكلم على أصول العقائد، ولا شك في أن الحاجة قائمة للمؤكدات.

وفي قوله تعالى للحث على قتال الكفار: ﴿وَإِنْ نَكَثُوا أَيْمَانَهُمْ مِنْ بَعْدِ عَهْدِهِمْ وَطَعَنُوا فِي دِينِكُمْ فَقَاتِلُوا أَئِمَّةَ الْكُفْرِ إِنَّهُمْ لَا أَيْمَانَ لَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَنْتَهُونَ﴾[6]. علّق الزمخشري الجملة الاسمية (لعلهم ينتهون) بالجملة الفعلية (فقاتلوا أئمة الكفر)[7]. وتبعه في هذا التعلُّق الرازي والبيضاوي (685هـ) والنسفي، وأبو حيان، وابن عادل، وشمس الدين الشافعي (977هـ)، والشنقيطي (1393هـ)، و محمد سيد الطنطاوي (1431هـ)[8].

وبيَّن الزمخشري العلاقة النحوية بين الجملتين بأنَّ الجملة الأولى تعليلٌ للجملة الثانية[9]، وما بينهما اعتراض[10]، وفسّر الزمخشري المعنى المنساق من التعلُّق، فقال: ((ليكنْ غرضُكم في مقاتلتِهم بعد ما وُجد منهم ما وُجد من العظائم، أن تكون المقاتلةُ سبباً في انتهائهم عما هم عليه))[11]، ثم أوضح أن هذا الأمر الإلهي على شدته فيه الرحمة كلها، فقال: ((وهذا من غاية كرمِه وفضلِه، وعودِه على المسيء بالرحمة كلمّا عاد))[12].

(1) ينظر: إرشاد العقل السليم 3 / 68.
(2) ينظر: الدر المصون 4 / 380، واللباب في علوم الكتاب 7 /465.
(3) ينظر: تفسير ابن عرفة 2 / 120.
(4) ينظر: مواهب الرحمن 12 / 78.
(5) ينظر: إعراب القرآن للنحاس 1 / 270. الدر المصون 4 / 379، واللباب في علوم الكتاب 7 /465.
(6) سورة التوبة / الآية 12.
(7) ينظر: الكشاف 2 / 251.
(8) ينظر: مفاتيح الغيب 15 / 35، وأنوار التنزيل وأسرار التأويل 3 / 73، والبحر المحيط 5 / 381، واللباب في علوم الكتاب 10 / 34، والعذب المنير من مجالس الشنقيطي في التفسير 5 / 306، والتفسير الوسيط لطنطاوي 6 / 219.
(9) ينظر: التحرير والتنوير 10 / 131.
(10) ينظر: الكشاف 2 / 251.
(11) المصدر نفسه 2 / 251.
(12) المصدر نفسه 2 / 251.

والباحث يعضد ما استنبطه الزمخشري من الرحمة الإلهية الواسعة هنا، ويستدل لهذا المعنى بأن الآية الكريمة تخاطب أئمة الكفر، وهم الذين نكثوا عهودهم في حال شركهم ((تمرّداً وطغياناً وطرحاً لعادات الكرام الأوفياء من العرب، ثم آمنوا وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة وصاروا إخواناً للمسلمين في الدين، ثم رجعوا فارتدوا عن الإسلام ونكثوا ما بايعوا عليه من الإيمان والوفاء بالعهود، وقعدوا يطعنون في دين الله ويقولون ليس دين محمد بشيءٍ، فهم أئمة الكفر وذوو الرياسة والتقدم فيه))[1]. فـ(أئمة الكفر) هؤلاء الذين لا جنس للإيمان في قلوبهم تشملهم رحمة الباري عزّ وجلّ إذا انتهوا.

ومع أن الأصل الثابت بالاستعمال الشائع في كلام العرب أن (لعلّ) إنما تستعمل في الترجي، وهو في الأصل الأمر الممكن حصوله، وقد فسّر العلماء (لعلّ) في الآية الكريمة على معنيين، الأول: أنها على معناها الظاهر من الترجي، والمعنى: قاتلوهم على رجائكم، أن ذلك القتال يكون موجباً لانتهائهم عن الكفر، والطعن في الدين، وهذا بحسب ما يظهر للناس الذين يجهلون العواقب، أما الله جلَّ وعلا فهو عالم بما كان وما يكون.

والآخر: وهو ما ذكره بعض علماء التفسير، أنه يغلب إتيان (لعل) في القرآن الكريم، مُشَمَّةُ معنى (التعليل)، إلا التي في قوله تعالى: ﴿وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ﴾[2]، فهي بمعنى: (كأنكم تخلدون)[3]، وأن إتيان (لعل) حرف تعليل مسموع في كلام العرب، ومنه قول جرير[4]:

وَقُلْتُمْ لَنَا كُفُّوا الحُـــرُوبَ لَعَلَّنَـا نَكُفُّ وَوَثَّقْتُمْ لَنَا كُلَّ مَوْثِقِ

فَلَمَّا كَفَفْنَا الحَرْبَ كَانَتْ عُهُودُكُم كَشَبْهِ سَرَابٍ بِالمَلَا مُتَأَلِّقِ

فقوله: (كفوا الحروب لعلنا نكف)، أي: كفوا لأجل أن نكف عنكم[5]، وعلى هذا جاءت (لعل) في الآية الكريمة بمعنى (التعليل)، أي: أن تكون مقاتلتهم سبباً في انتهائهم عن الكفر، ولما قال تعالى: (فقاتلوا أئمة الكفر)، أتبعه بذكر ثلاثة أسباب موجبة تبعث على مقاتلتهم، وهي النكث بالأيمان، وعدم الوفاء بالعهود، والطعن في الدين، كل واحد منها يوجب المقاتلة لو انفرد، فكيف بها حال الاجتماع [6] !. فهذه الأسباب الثلاثة توجب مقاتلهم، ولكن الأهم من هذه الأسباب في مقاتلتهم، هو انتهاؤهم عن هذه الأسباب.

وفي قوله تعالى في الأحكام الشرعية: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ لَكُمْ مِنْ رِزْقٍ فَجَعَلْتُمْ مِنْهُ حَرَامًا وَحَلَالًا قُلْ آللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ أَمْ عَلَى اللَّهِ تَفْتَرُونَ﴾[7].

ذكر الزمخشري أن الجملة الاسمية الاستفهامية (آلله أذن لكم) متعلقة بالجملة الفعلية الاستفهامية: (أرأيتم)، ((والمعنى: أبروني آلله أذنَ لكم في التحليل والتحريم فأنتم تفعلون ذلك بإذنه، أم تكذبون على الله في نسبة ذلك إليه)) [8].

فالجملة الاسمية عنده مفعول ثانٍ لـ(أرأيتم)، التي بمعنى (أخبروني) [9]، وتبعه في هذا النسفي، وابن جزي (741هـ) والمظهري (1225 هـ) و إبراهيم الأبياري (1414هـ)[10].

وللعرب في (أ رأيت) لغتان، ومعنيان، أحدهما: أن يَسألَ الرجلُ الرجلَ، أرأيت زيداً بعينك ؟ وهذه مهموزة، وهي بمعنى (أبصرت). والمعنى الآخر: أنْ تقول: (أ رأيت) بمعنى: أخبرني، فتهمزها وتنصب التاء منها، وتترك الهمز إن شئت، وهو أكثر كلام العرب، فـ(أ رأيت) معناه: الاستخبار والاستفهام، أي: أخبرني عن كذا [11].

(1) الكشاف 2 / 251.
(2) سورة الشعراء / الآية 129.
(3) ينظر: البحر المحيط 8 / 178.
(4) ديوانه 1 / 364.
(5) ينظر: الجامع لأحكام القرآن 1 / 227، والدر المصون 1 / 189.
(6) ينظر: السراج المنير 1 / 592.
(7) سورة يونس / الآية 59.
(8) الكشاف 2 / 353 – 354.
(9) ينظر: البحر المحيط 6 / 77، وفتح القدير، الشوكاني 2 / 17، وروح المعاني 6 / 134.
(10) ينظر: مدارك التنزيل 2 / 29، والتسهيل لعلوم التنزيل 2 / 29، والتفسير المظهري 5 / 36.
(11) ينظر: تهذيب اللغة (باب اللفيف من حرف الراء) 15 / 230، وغريب الحديث للخطابي 1 / 194، والفائق في غريب الحديث، الزمخشري 2 / 399، والنهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثير 2 / 178، ولسان العرب (رأي) 12 / 294 – 295

إذن جملة (آلله أذن لكم)، مفعول ثانٍ لـ(أرأيتم) التي بمعنى أخبروني، أي: أخبروني آلله أذن لكم بذلك أم على الله تفترون، والهمزة المدغمة في همزة الوصل (آلله) على أصلها همزة استفهام، ويكون هذا الاستفهام للتقرير، لأن الأصل في همزة الاستفهام أن تأتي في غالب الأمر على جهل من المستفهِم، فإذا كانت من الله عزّ شأنه كانت تقريراً وتوبيخاً، لا على الاستفهام الحقيقي [1].

واحتمل النيسابوري (ت 805 هـ) في هذا التعلُّق أن تكون جملة المبتدأ والخبر بتمامها متعلقة بجملة (أ رأيتم)، قال: ((و(ما أنزل) الجملة في محل الرفع بالابتداء، وخبره (آلله أذن لكم) و (قل) مكرر للتأكيد والرابط محذوف، ومجموع المبتدأ والخبر متعلق بـ(أ رأيتم)، والمعنى: أخبروني الذي أنزل الله لكم من رزق فجعلتم منه حراماً وحلالاً، آلله أذن لكم في تحريمه وتحليله أم على الله تفترون))[2]. وبذا وسَّع النيسابوري التعلُّق معنى وإعراباً بأوسع مما قال به الزمخشري، لتقع الجملة الاسمية بتمامها عنده في محل نصب المفعول به الثاني لـ(أرأيتم).

وانفرد الزمخشري بتجويز وجه آخر في بيان معنى هذه الآية الكريمة، وهو أن تكون جملة ﴿ آللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ أَمْ عَلَى الله تَفْتَرُونَ﴾، جملة مستأنفة مقطوعة عمّا قبلها، والهمزة للإنكار بمعنى بل، و (أم) منقطعة، والمعنى أرأيتم افتراءكم، وأقررتم به، بل تفترون على الله تقريراً للافتراء [3].

وعلى هذا الوجه لا تعلق بين الجملتين. والإنكار على الذين يفترون الأحكام الشرعية فيحللون ويحرمون، والتشدد معهم، أقوى على هذا الوجه، قال الزمخشري: ((وكفى بهذه الآية زاجرةً زجراً بليغاً عن التجوز فيما يُسئَل عنه من الأحكام. وباعثةً على وجوب الاحتياط فيه، وأن لا يقول أحد في شيء جائز أو غير جائز إلاّ بعد إيقان واتقان، ومن لم يُوقن فليتق الله وليصمت، وإلاّ فهو مفترٍ على الله)) [4].

على ان الإبقاء على (أم) متصلة، والهمزة للاستفهام بين الأمرين، أي: آلله أذن لكم في التحليل والتحريم أم افتريتم على الله في ذلك، هو الوجه الأولى، لأن فيه إقرارهم أنفسهم بأنهم يفترون على الله، إذ لا يمكنهم أن يدّعوا أن الله قد أذن في ذلك، فتلك دعوى باطلة لا سند لها، وفي قوله تعالى في قصة النبي يوسف (عليه السلام): ﴿فَلَمَّا ذَهَبُوا بِهِ وَأَجْمَعُوا أَنْ يَجْعَلُوهُ فِي غَيَابَةِ الْجُبِّ وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَنَّهُمْ بِأَمْرِهِمْ هَذَا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾[5]. تابع الزمخشريُّ الزجاجَ [6]، في أن الجملة الاسمية (وهم لا يشعرون) متعلقة بجملة (لتنبئنهم بأمرهم) أو بجملة (أوحينا إليه) [7]، وفسّر هذا التعلُّق بأمرين:

الأول: أن جملة (وهم لا يشعرون) متعلقة بجملة (لتنبئنهم)، أي: أوحينا إليه أنك ستنبئهم بما فعلوا من حيث هم لا يشعرون أنك أخوهم، ((وذلك أنهم حين دخلوا عليه ممتارين فعرفهم وهم له منكرون، دعا بالصواع فوضعه على يده، ثم نقره فطنّ فقال: إنه ليخبرني هذا الجام أنه كان لكم أخ من أبيكم يقال له يوسف، وكان يدنيه دونكم، وأنكم انطلقتم به وألقيتموه في غيابة الجب، وقلتم لأبيكم: أكله الذئب، وبعتموه بثمنٍ بخس)) [8]. والمراد: أن الله تعالى أوحى إلى يوسف أنك ستخبر إخوتك بصنيعهم بعد هذا اليوم، وهم لا يشعرون في ذلك الوقت أنك يوسف والمقصود تقوية قلبه بأنه سيحصل له الخلاص من هذه المحنة [9]، فجملة (وهم لا يشعرون) حالية من قوله: لتنبئنهم بهذا [10]، أي: غير عالمين أنك يوسف وقت التنبيه، وذلك لعلو شأنك وعظمة سلطانك، وبعد حالك عن أذهانهم لطول المدة المغيرة للهيئات والأشكال [11]

(1) ينظر: إعراب القرآن، الاصبهاني 1 / 4، 457، وتفسير المنار، محمد رشيد رضا 11 / 335.
(2) غرائب القرآن 3 / 592.
(3) ينظر: الكشاف 2 / 354.
(4) المصدر نفسه 2 / 354.
(5) سورة يوسف / الآية 15.
(6) ينظر: معاني القرآن وإعرابه 3 / 95.
(7) ينظر: الكشاف 2 / 450.
(8) المصدر نفسه 2 / 450.
(9) ينظر: مفاتيح الغيب 18 / 428.
(10) ينظر: البحر المحيط 6 / 248، والتفسير الوسيط لطنطاوي 7/ 328، والمجتبى من مشكل إعراب القرآن 2 / 494.
(11) ينظر: البحر المحيط 6 / 248.

والأمر الآخر: وهو الراجح عند الزمخشري أن جملة (وهم لا يشعرون) متعلقة بجملة (أوحينا إليه)، أي: آنسناه بالوحي وهو في الجب – زمن وضعه فيه – وجعلناه نبياً وهم لا يشعرون بذلك، ويحسبون أنه مرهق مستوحش لا أنيس له[1].

والمراد: أنا أوحينا إلى يوسف (عليه السلام) في البئر بأنك تنبئ إخوتك بهذه الأعمال وهم ما كانوا يشعرون بنزول الوحي عليه، والفائدة في إخفاء نزول الوحي عنهم أنهم لو عرفوه لازداد حسدهم وقتلوه[2]، وعلى هذا القول تكون جملة (وهم لا يشعرون) حال من قوله: وأوحينا[3]، أي: وهم لا يشعرون بإيحائنا إليك وما أخبرناك به من نجاتك وطول عمرك، إلى أن تنبئهم بما فعلوا بك[4].

وللزمخشري رأي آخر: في ما إذا قرئ (لننبئنهم) بضمير التعظيم العائد إلى الله سبحانه وتعالى[5]، إذ يجب أن يتعلق (وهم لا يشعرون) بـ(أوحينا إليه)[6] لأن ذلك سيكون وعيد لهم بأننا سنجازيهم على عملهم هذا، وفي هذه الحال هم سيشعرون بذلك حتماً، لأن (وهم لا يشعرون) سيتعلق بزمن فعلتهم، أي: رمي يوسف (عليه السلام) في الجب، ولا يجوز كونهم لا يشعرون عندما يتحقق وعيد الله. وتبعه في هذا التعلُّق أبو السعود (982 هـ)، وأبو العباس الفاسي الصوفي (1224هـ)[7].

ويبدو أن تعلق جملة (وهم لا يشعرون) بجملة (لتنبئنهم) أولى من تعلقها بجملة (أوحينا) للأمور الآتية:

1- المحافظة على قصدية القرآن الكريم في ترتيب الكلام، وما سيتتبع ذلك من قصدية ترتب الأخبار الواردة في النص الإلهي.
2- إن الأقرب أن تكون جملة (لتنبئنهم بأمرهم هذا وهم لا يشعرون) بيانية للإيحاء، وعليه يكون تعلق بعضها ببعض أقرب.
3- الايحاء هنا ليس إيحاء بالنبوة بمعناها العام، ثم تنبيه النبي يوسف (عليه السلام) إلى إخفاء الأمر عن إخوته خوفاً عليه من حسدهم وغيلتهم، بل هو إيحاء بأمر محدد بأنه (عليه السلام) سينجو من هذه المحنة وسينبئ إخوته بما فعلوه من حيث هم لا يشعرون بكيفية ذلك، والذي يدل على هذا أن النبي يوسف (عليه السلام) حينما غاله إخوته كان صغير السن، حتى إن بعض المفسرين ذهب إلى أن المقصود بهذا الإيحاء الإلهام لا الوحي والنبوة[8]، إلا أن يقال: إن الله سبحانه وتعالى أكمل استعداده لتلقِّي الوحي في تلك السن، كما هو حال النبي عيسى والنبي يحيى (عليهما السلام) ولا غرابة في ذلك فالله غالب على أمره، وهو أعلم.

وفي قوله تعالى في أحكام العبادات: ﴿وَلَا تَقُولُوا لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الْكَذِبَ هَذَا حَلَالٌ وَهَذَا حَرَامٌ لِتَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ﴾[9]. علّق الزمخشري قوله تعالى: (هذا حلال وهذا حرام) بما قبله، على رأيين، الأول: يجوز أن يتعلق بـ(تصف) على أن يكون (الكذب) منصوباً مفعولاً به لـ (لا تقولوا) أي: لا تقولوا الكذب لما تصفه ألسنتكم من البهائم بالحل والحرمة، وقوله تعالى: (هذا حلال وهذا حرام) بدل اشتمال من الكذب، لأنه عينه، أو يجوز أن يتعلق بـ(تصف) على إرادة قول مضمر، أي: ولا تقولوا الكذب لما تصفه ألسنتكم، فتقولوا: هذا حلال وهذا حرام لوصف ألسنتكم، و(لما تصف) علة للنهي، والتقدير: ولا تقولوا الكذب لوصف ألسنتكم[10]

---

(1) ينظر: الكشاف 2 / 450.
(2) ينظر: مفاتيح الغيب 18 / 428.
(3) ينظر: البحر المحيط 6 / 248، واللباب في علوم الكتاب 11 / 36، والتفسير الوسيط لطنطاوي 7 / 328.
(4) ينظر: البحر المحيط 6 / 248، والتفسير الوسيط لطنطاوي 7 / 328.
(5) قرأها بضمير التعظيم (لننبئهم) طلحة بن مصرف، ينظر: البحر المحيط 249/6.
(6) ينظر: الكشاف 2 / 450.
(7) ينظر: إرشاد العقل السليم 4 / 259، والبحر المديد في تفسير القرآن المجيد 2 / 580.
(8) ينظر: معاني القرآن وإعرابه 3 / 95، والنكت والعيون، الماوردي 3 / 14.
(9) سورة النحل / الآية 116.
(10) ينظر: الكشاف 2 / 640.

والرأي الاخر: أن يتعلق قوله تعالى: (هذا حلال وهذا حرام) بقوله عزَّ وجلَّ: (ولا تقولوا)، فيكون (الكذب) منصوباً على أنه مفعول به لـ(تصف) و(ما) مصدرية، و(لما تصف) علة للنهي عن القول أيضاً، والمعنى: لا تقولوا هذا حلال وهذا حرام لوصف ألسنتكم الكذب أي: لا تحرموا ولا تحللوا، لأجل قول تنطق به ألسنتكم، ويجول في أفواهكم بقول ساذج ودعوى فارغة من دون حجة بيِّنة[1]. وتابع الزمخشري في هذا البيضاوي، والنسفي، والسمين الحلبي، وأبو السعود، والأيجي (905هـ)، والمظهري[2].

ويبدو أن هذا الوجه أظهر من سابقه، فتعليق (هذا حلال وهذا حرام) بـ(لا تقولوا)، أي: لا تقولوا هذا حلال وهذا حرام بسبب وصف ألسنتكم لغاية افتراء الكذب على الله أنسب، لسببين:

1- إن الكلام معقود هنا على بيان الحكم الشرعي الإلهي في حِلِيةِ البهائم من حرمتها، وإن ذلك إنما يستنبط من كلام الله عزَّ شأنه لا من افتراء المفترين على الله. ويعضد ذلك أن هؤلاء إنما هم أهل فتيا لا ممن لا يبالون لكثرة الكذب على الله، ولكن الآية الكريمة تتشدد معهم، لئلا يتمادوا في القول بما لا يعلمون في أمر يختص بأحكام المعاملات بين الناس.

2- إن الأقرب أن تكون جملة (لما تصف ألسنتكم من الكذب) بياناً للقول المنهي عنه، ووصفاً له، لا أنها مقول القول المقصود بالكلام.

3- تعلق جملة اسمية بمحذوف مقدر بجملة فعلية:

في قوله تعالى في بيان حال المشركين: ﴿مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ ذِكْرٍ مِنْ رَبِّهِمْ مُحْدَثٍ إِلَّا اسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ □ لَاهِيَةً قُلُوبُهُمْ وَأَسَرُّوا النَّجْوَى الَّذِينَ ظَلَمُوا هَلْ هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ أَفَتَأْتُونَ السِّحْرَ وَأَنْتُمْ تُبْصِرُونَ﴾[3].

انفرد الزمخشري في تعليق جملة: (هل هذا إلا بشر مثلكم أ فتأتون السحر وأنتم تبصرون) بمحذوف قدره بالفعل (قالوا) قبل الاستفهام، والمعنى: أنهم اعتقدوا أن الرسول (صلى الله عليه وآله) لا يكون إلا مَلَكاً، وأن كل من ادَّعى الرسالة من البشر وجاء بالمعجزة هو ساحر ومعجزته سحر [4]، أي: قالوا: هل هذا الرسول إلا بشر مثلكم لا ينماز منكم بشيءٍ[5]، وهذا القول هو نتيجة تآمرهم، وقد تناجوا به سراً، ودلَّ عليه قوله تعالى: (وأسروا النجوى الذين ظلموا)، فالنجوى: المحادثة الخفية، وهي اسم من التناجي، والتناجي لا يكون إلا سراً [6].

وهذا القول دار سراً بين المشركين في التآمر على دعوى الرسول (صلى الله عليه وآله) وكان ذلك شبه التشاور في ما بينهم والتحاور في طلب الطريق إلى هدم أمر الدعوة الإسلامية، وعادة المتشاورين الاجتهاد في كتمان سرهم بحق أعدائهم[7] ولكن قولهم هذا لا يخفى على المحيط علما بكل قول سراً كان أم جهراً، فأطلع الله تعالى نبيه (صلى الله عليه وآله) على ما تناجوا به، فأظهر قولهم بجملة استفهامية مؤكدة النفي مشوبة بالتعجب[8]. وعلى هذا تقع جملة (هل هذا إلا بشر مثلكم أفتأتون السحر وأنتم تبصرون) موقع الجملة التفسيرية[9] عند الزمخشري. وتبعه في هذا النسفي[10].

وذكر الزمخشري رأياً آخر في قوله تعالى: (هل هذا إلا بشر مثلكم أفتأتون السحر وأنتم تبصرون)، أن هذا الكلام كله في محل نصب بدل من (النجوى) في قوله تعالى: (وأسروا النجوى الذين ظلموا)، أي: وأسروا هذا الحديث[11]، فقد

(1) ينظر: الكشاف 2 / 640 – 641.
(2) ينظر: أنوار التنزيل 3 / 243، ومدارك التنزيل 2 / 239، والدر المصون 7 / 297، وإرشاد العقل السليم 5 / 147، والتفسير المظهري 5 / 386.
(3) سورة الأنبياء / الآيتان 2، 3.
(4) ينظر: الكشاف 3 / 102.
(5) ينظر: فتح القدير 3 / 470.
(6) ينظر: الكشاف 3 / 102، وفتح القدير 3 / 470، والتحرير والتنوير 17 / 13.
(7) ينظر: المصدر نفسه 3 / 102، ومفاتيح الغيب 22 / 120.
(8) ينظر: البحر المحيط 7 / 408، وفتح القدير 3 / 470، والتحرير والتنوير 17 / 14.
(9) ينظر: مغني اللبيب 1 / 522
(10) ينظر: مدارك التنزيل 2 / 394.
(11) ينظر: الكشاف 3 / 102.

أبدل الزمخشري جملة من مفرد، وهو في هذا على رأي الكوفيين، إن ما فيه معنى القول يعمل في الجمل[1]. وقد جعل ابن مالك (672 هـ) منه قولك: عَرَفْت زيداً أبو مَنْ هو)، فـ(أبو) مبتدأ، و (مَنْ) مضاف إليه، و (هو) خبر، والجملة بدل من (زيداً) بدل اشتمال، لا مفعول ثانٍ لأن (عرفت) إنما يتعدى إلى مفعولٍ واحد[2]، والبدل الذي قال به الزمخشري هو بدل مطابق، لأن قوله تعالى: (هل هذا إلا بشر مثلكم أفتأتون السحر وأنتم تبصرون) هو الكلام الذي تناجوا به [3]. وقيل: إن هاتين الجملتين الاستفاميتين الظاهر أنهما متعلقتان بقوله تعالى: (وأسروا النجوى)، وأنهما محكيتان بقوله (النجوى)، لأنه بمعنى القول الخفي، فهما في موضع نصب على المفعول بالنجوى [4].

ويركن الباحث إلى أن ما ذهب إليه الزمخشري في تعلق الجملة الاسمية بمحذوف قدره بالفعل (قالوا) هو الأنسب ومعنى الآية الشريفة، وقد بيَّن أنهم تناجوا بهذا الحديث سراً ونَهَوا مَنْ ناجوهم عن الاستماع إلى رسول الله (صلى الله عليه وآله) ولكن الله عزَّ شأنه كشف سرهم ونجواهم إلى رسوله الكريم (صلى الله عليه وآله) وكشف مؤامرتهم، وقد أخبرهم الرسول الكريم بما تناجوا به سراً ليبطل ادعاءهم للناس، وأن هذا الوجه أوفق وقواعد النحو، مما ذُكِر من الوجهين الآخرين لما يأتي:

1- أنَّ إعراب جملة (هل هذا إلا بشر مثلكم أفتأتون السحر وأنتم تبصرون) بدلاً من النجوى، فيه من مخالفة القواعد النحوية المفسرة ما لا يخفى، فإبدال الجملة من المفرد، وإنْ حاول بعض النحاة تخريجه، مخالفٌ لأصول الأحكام في البدل، ثم إن إعراب هذه الجملة بدلاً مردودٌ بأنه قد تقرر في أحكام البدل أن المبدل منه على نية الطرح [5]، و حذف المبدل منه في الآية الكريمة (النجوى) مخلٌّ بمعنى الآية قطعاً.

2- أن القول بأن الجملتين الاستفاميتين محكيتان بقوله تعالى: (النجوى) على أنهما في موضع نصب على المفعول به، فيه من تكلف الإعراب والمعنى ما يبعد ترجيحه.

وفي قوله تعالى: ﴿حَتَّى إِذَا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ وَهُمْ مِنْ كُلِّ حَدَبٍ يَنْسِلُونَ (96) وَاقْتَرَبَ الْوَعْدُ الْحَقُّ فَإِذَا هِيَ شَاخِصَةٌ أَبْصَارُ الَّذِينَ كَفَرُوا يَا وَيْلَنَا قَدْ كُنَّا فِي غَفْلَةٍ مِنْ هَذَا بَلْ كُنَّا ظَالِمِينَ﴾[6].

انفرد الزمخشري بتعليق جملة النداء (يا ويلنا) بمحذوف جملة فعلية تقع حالاً من الاسم الموصول (الذين كفروا)[7]. قال: (((يا ويلنا) متعلقٌ بمحذوفٍ تقديره: يقولون يا ويلنا، ويقولون: في موضع الحالِ من الذين كفروا))[8].

وحذف الحال بتقدير القول وردت عليه جملة من الشواهد الفصيحة، حتى قيل بأنه حذفٌ كثير في العربية [9]، مما يثبت معه ما ذهب إليه الزمخشري، ومن هذه الشواهد قوله تعالى: ﴿أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِي مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ كَاذِبٌ كَفَّارٌ﴾[10] بتقدير: قائِلِيْنَ: ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله. ويبدو أن الزمخشري إنما قدّر المحذوف بالفعل (يقولون) فوقع الحال جملة فعلية، مع أن الأصل أن يقدره بـ(قائلين) على الحال المفرد، لأن تقدير الجملة هنا أكثر مواءمة وسياق الآية الكريمة، لما في جملة الحال من زيادة في التوكيد على معنى ما يؤديه الحال المفرد، فمقام التهويل هنا يتطلب تقدير الجملة، إذ إنّ الآية في موضع بيان شدة الكرب الذين يحيط بالكافرين يوم اضطراب الكون وبعث الناس وقيام الساعة. وحذف الحال إنما تمّ بدلالة القرينة المعنوية وهي سياق الحال الذي وُصِف به الكافرون في ذلك اليوم، فحالهم أنهم

---

(1) ينظر: مغني اللبيب 1 / 522.
(2) ينظر: توضيح المقاصد والمسالك 2 / 1049.
(3) ينظر: التحرير والتنوير 17 / 13.
(4) ينظر:البحر المحيط 7 /409.
(5) ينظر: المقتضب 4 / 396، والأصول في النحو 1 / 343، والتعليقة على كتاب سيبويه، أبو علي الفارسي 2 / 61
(6) سورة الأنبياء / الآيتان 96 – 97.
(7) ينظر: الكشاف 3 / 135، والبحر المحيط 7 / 467، والدر المصون 8 / 206، واللباب في علوم الكتاب 13 / 603.
(8) الكشاف 3 / 135.
(9) ينظر:إعراب القرآن، النحاس 3 / 57.
(10) سورة الزمر / من الآية 3.

شاخصة أبصارهم، أي: واقفة أعينهم لا تتحرك، فمعنى شخوص العين أنها تفتح فلا تطرف، وذلك يكون في حال الفزع والهلع[1]، فحذف (يقولون) مفهوم من بيان حال الكافرين، فهم يقولون بلسان الحال، وهو أبلغ من لسان المقال، يقول الطبري: ((وفي الكلام متروكٌ، تُرِكَ ذِكْرُهُ، استغناءً بِدَلالةِ ما ذُكِرَ عَلَيْهِ عنه)) [2].وهذا الذي ذهب إليه الزمخشري خالف فيه البصريين الذين ذهبوا إلى أن جملة (يقولون يا ويلنا) جملة جواب الشرط لـ(إذا) في (حتى إذا) الواقعة في أول الآية الكريمة، والمعنى عندهم: حتى إذا فتحت يأجوج ومأجوج واقترب الوعد الحق يقولون: يا ويلنا [3]. والذي يظهر أن رأي الزمخشري أقرب إلى معنى الآية الكريمة فسياق الحال في (يا ويلنا) أنسب لدلالة الهلع والفزع. أما جواب (إذا) فقوله تعالى: (فإذا هي شاخصة أبصار الذين كفروا)، ذلك أن (((إذا) هي إذا المفاجأة، وهي تقع في المجازاة سادّة مسدّ الفاء، كقوله تعالى: (إِذَا هُمْ يَقْنَطُونَ)، فإذا جاءت الفاء معها تعاونتا على وصل الجزاء بالشرط فيتأكد))[4].

المبحث الثاني: تعلق الجملة الفعلية

1- تعلق جملة فعلية بجملة اسمية

وذلك في قوله تعالى في شأن اليهود: ﴿فَبِمَا نَقْضِهِمْ مِيثَاقَهُمْ وَكُفْرِهِمْ بِآيَاتِ اللَّهِ وَقَتْلِهِمُ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌ بَلْ طَبَعَ اللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا (155) وَبِكُفْرِهِمْ وَقَوْلِهِمْ عَلَى مَرْيَمَ بُهْتَانًا عَظِيمًا﴾[5].

إذ انفرد الزمخشري ببيان تعلق هاتين الآيتين في النص القرآني فقال:(((بل طبع الله عليها بكفرهم) ردٌّ وإنكارٌ لقولهم: (قلوبنا غلف) فكان متعلقاً به))[6]، ثم ذكر المعنى المنساق من الآية الكريمة بقوله: ((وذلك أنهم أرادوا بقولهم: (قلوبنا غلف) أن الله خلق قلوبنا غلفاً، أي في أكِنَّة لا يتوصل إليها شيءٌ من الذكر والموعظة))[7]، وجاء الرد والإنكار من الله عزّ وجلّ: ((بل خذلها الله ومنعها الألطاف بسبب كفرهم، فصارت كالمطبوع عليها، لا أن تُخلق غلفاً غيرَ قابلةٍ للذكر ولا متمكِّنةٍ من قبوله))[8]، وردَّ أبو حيان رأي الزمخشري بـ((أنّ العطف بـ (بل) يكون للإضراب عن الحكم الأول، وإثباته للثاني على جهة إبطال الأول، أو الانتقال عاماً في كتاب الله في الإخبار، فلا يكون إلا للانتقال، ويستفاد من الجملة الثانية ما لا يستفاد من الجملة الأولى. والذي قدّره الزمخشري لا يسوغ فيه هذا الذي قرّرناه، لأن قوله: (فبما نقضهم ميثاقهم وكفرهم بآيات الله)، وقولهم: (قلوبنا غلف بل طبع الله عليها بكفرهم) هو مدلول الجملة التي صحبتها (بل)، فأفادت الجملة الثانية ما أفادت الجملة الأولى وهو لا يجوز. لو قلت: مرَّ زيدٌ بعمرٍو، بَلْ مرَّ زيد بِعمرٍو، لم يَجُزْ))[9].

وقول أبي حيان هذا فيه نظر، لأنَّ الزمخشري قد أوضح ذلك غاية الإيضاح واعترض وأجاب فقال: ((فإن قلتَ: علامَ عَطَفَ قولَه: (وَبِكُفْرِهِمْ) ؟ قلتُ: الوجه أن يعطف على (فبما نقضهم) ويجعل قوله: (بَلْ طَبَعَ الله عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ) كلاماً تبع قوله: (وَقَالُواْ قُلُوبُنَا غُلْفٌ) على وجه الاستطراد، يجوز عطفه على ما يليه من قوله: (بكفرهم). فإن قلتَ: ما معنى المجيء بالكفر معطوفاً على ما فيه ذكره، سواء عُطف على ما قبل حرف الإضراب، أو على ما بعده، وهو قوله: (وَكُفْرِهِم بآيات الله)، وقوله: (بِكُفْرِهِمْ) ؟ قلتُ: قد تكرّر منهم الكفر، لأنّهم كفروا بموسى، ثم بعيسى، ثم بمحمد صلوات الله عليهم، فعطف بعض كفرهم على بعض، أو عطف مجموع المعطوف على مجموع المعطوف عليه، كأنه قيل: فبجمعهم بين نقض

(1) ينظر: زهرة التفاسير 9 / 4919.
(2) جامع البيان 16 / 410.
(3) ينظر: معاني القرآن وإعرابه 3 / 405، والدر المصون 8 / 206، ومعالم التنزيل في تفسير القرآن 5 / 355.
(4) الكشاف 3 / 135، والنص القرآني من سورة الروم / من الآية 36.
(5) سورة النساء / الآيتان 155 – 156.
(6) الكشاف 1 / 586.
(7) المصدر نفسه 1 / 586.
(8) المصدر نفسه 1 / 586.
(9) البحر المحيط 4 / 124، وينظر: اللباب في علوم الكتاب 7 / 108.

الميثاق، والكفر بآيات الله، وقتل الأنبياء وقولهم: قلوبنا غلف، وجمعهم بين كفرهم وبهتهم مريم، وافتخارهم بقتل عيسى، عاقبناهم. أو بل طبع الله عليها بكفرهم وجمعهم بين كفرهم وكذا وكذا)) [1].

والباحث يؤيد ما ذهب إليه الزمخشري، ففي التفسير أن (غُلْفٌ): جمع (أغلف)، وهو الذي عليه الغلاف ليمنع نفوذ الشيء اليه، فهي مُغشّاة بأغشية تحجب عنها فهم الإعجاز ودلائل التصديق، فالمعنى أن قلوبهم في أغشية تمنعها من قبول الحق، وأثر المواعظ فيها ونفوذ ما جاء به الرسول (صلى الله عليه وآله)، وقوله تعالى: (بل طبع الله عليها بكفرهم) كلام معترض بين المعطوفين جيء به على وجه الاستطراد، مسارعة إلى ردّ زعمهم الفاسد، أي: إن إباءهم عن قبول الحق واستماع الدعوة لم يكن مستنداً إلى كون قلوبهم غلف، وإنما هو راجع إلى صنع الله عزَّ وجلَّ فيهم، لأجل كفرهم وجحودهم وعصيانهم[2]، ويؤيد ذلك قوله تعالى: ﴿وجعلنا على قلوبهم أكنة أن يفقهوه﴾[3]، وقوله تعالى: ﴿طبع الله على قلوبهم﴾[4]. والله أعلم.

وفي قوله تعالى: ﴿ذَلِكَ مَبْلَغُهُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اهْتَدَى (30) وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَسَاءُوا بِمَا عَمِلُوا وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَى﴾[5]. وعلّق الزمخشري جملة (ليجزي) بالجملة (هو أعلم بمن ضل عن سبيله وهو أعلم بمن اهتدى) وعلَّل ذلك بـ((أن نتيجة العلم بالضال والمهتدي جزاؤهما (بِمَا عَمِلُواْ) بعقاب ما عملوا من السوء، و (بالحسنى) بالمثوبة الحسنى وهي الجنة))[6].

ويفهم من هذا أن اللام في (ليجزي) لام تعليل، لبيان أنَّ علمه الأزلي سبحانه وتعالى بضلالة مَنْ ضَلَّ وهداية من اهتدى سبب في جزائهم كلّ بعمله، وعلى هذا الرأي تكون جملة (ولله ما في السموات وما في الأرض) جملة معترضة لا محل لها من الإعراب مؤكدة للجزاء، وهي بيانية للدلالة على أنه فضلاً عن علمه سبحانه وتعالى، له الملك وله القدرة على مجازاة خلقه[7]، فالذين أساؤوا جزاؤهم على قدر أعمالهم، والذين أحسنوا جزاؤهم أعلى من قدر أعمالهم، وفي هذا الدلالة على العدل والرحمة، ولذلك لم يطابق سياق الكلام بين إساءة المسيء، وجزائه بعكس ما في الإحسان، ((لأنّ العمل أعمُّ من الإساءة، وتعليق الحكم بالعقوبة على الأعمِّ أبلغ من تعليقه على الأخص، بخلاف الثواب، لأنّ الإساءة مطلوبٌ نفيها، فكان ذلك من باب النفي، والإحسان مطلوب ثبوته فصار ذلك من باب الثبوت، والأبلغُ استعمالُ الأعمِّ في النفي، والأخصِّ في الثبوت، ويُجاب أيضاً: بأنّ السيئات مذمومةٌ شرعاً، فكره إعادتها بلفظ الخاص بها، وأُعيدت باللفظ الأعمِّ، والحسنات مندوب إليها، فاستعملت بأخص لفظها))[8]، غير أنّ الزمخشري أشار في كلامه إلى تعلق آخر لـ(ليجزي) ولم يصرح، قال في تفسير النص القرآني ومعناه: ((أنّ الله عزّ وجلّ إنّما خلقَ العالمَ وسوّى هذه الملكوت لهذا الغرض: وهو أن يجازي المحسن من المكلفين والمسيء منهم))[9]. ويُفهم منه أنّ التعلُّق هنا تعلق معنى، أي: تعلق الفعل بجملة (لله ما في السموات وما في الأرض) بمعنى هو المالك فيجزي المسيء بإساءته والمحسن بإحسانه، واللام على هذا للتعليل[10].

وذهب بعض المفسرين إلى أن اللام هنا للعاقبة، على أن الله خلق السموات والأرض وفيهما المسيء والمحسن، فتؤول عاقبة الضال أن يجزيه الله تعالى بعمله ويؤول أمر المحسن إلى جزائه بالحسنى [11]، وفي ذلك نفي توهم إهمال الخلق وتركهم سدىً[12].

---

(1) الكشاف 1 / 586 – 587.
(2) ينظر: النكت والعيون 1 / 542، والتبيان في إعراب القرآن 1 / 404، وإرشاد العقل السليم 2 / 250، والميزان في تفسير القرآن، العلامة الطباطبائي 5 / 133.
(3) سورة الأنعام / من الآية 25.
(4) سورة النحل / من الآية 108.
(5) سورة النجم / الآيتان 30 – 31.
(6) الكشاف 4 / 425.
(7) ينظر: فتح القدير: 5 / 135، و روح المعاني 14 / 60.
(8) تفسير ابن عرفة 4 / 98.
(9) الكشاف 4 / 425.
(10) ينظر: التحرير والتنوير 27 / 120.
(11) ينظر: إرشاد العقل السليم 8 / 161.
(12) ينظر: غاية الأماني في تفسير الكلام الرباني، أحمد بن أسماعيل الكوراني 26.

ويظهر للباحث أن المعنيين مقبولان، وإن كان الأولى أن المعنى الأول الذي صَرَّحَ به الزمخشري من أن جملة (ليجزي) متعلقة بجملة (هو أعلم) لما يأتي:

1- أنّ القول بتعلق (ليجزي) بالمعنى المفهوم من الملك والخلق في قوله تعالى: (ولله ما في السموات وما في الأرض) يقطع الكلام عما قبله، مع أنّ هذا الكلام فيه تصريح على علم الله بضلالة الضال وهداية المهتدي، فيستتبع ذلك ربط هذا الكلام بجزاء كل منهما بالمسيء على قدر عمله والمحسن بإحسانه.

2- أنّ في جملة (ولله ما في السموات وما في الأرض) زيادة توكيد لأمر الوعيد، فهو سبحانه وتعالى أعلم بخلقه، وهم أيضاً تحت ملكه وقدرته، لذلك رجح بعض المفسرين هذه الزيادة في المعنى لمناسبة مضمون الآية الكريمة[1].

3- تعلق جملة فعلية بجملة فعلية:

في قوله تعالى في تطييب نفوس المؤمنين: ﴿وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾[2].

احتمل الزمخشري في تعلق جملة الشرط (إن كنتم مؤمنين) احتمالين، الأول: أنها متعلقة بالجملة الفعلية المنهي عنها، ((بمعنى: ولا تهنوا إن صحّ إيمانُكم، على أنّ صحة الإيمانِ تُوجِب قوةَ القلب والثقةَ بصنع الله وقلةَ المبالاة بأعدائه))[3].

ذلك أن الآية الكريمة نزلت في وقعة أحد بعد خسارة المسلمين المعركة مع المشركين، فصيغة النهي هنا واردة لتسكين قلوب المسلمين وتصبيرهم على ما لاقوه بسبب مخالفتهم أوامر الله تعالى ورسوله (صلى الله عليه وآله)، فكان النهي عن ضعف نفوسهم عن الجهاد نتيجة لما أصابهم من الجراح، والنهي عن الحزن لما أصابهم من الهزيمة وقتل المجاهدين من ساداتهم كحمزة بن عبد المطلب، ومصعب بن عمير وغيرهما، يتطلب الشرط (إن كنتم مؤمنين)، لأن أمراض القلب، إنما تعالج بالإيمان الصادق، ولاسيما أن المؤمن الصادق يُقَرِّرُ نفسه دائماً بأنّ النصر والغلبة لدين الله وأنصاره في الدنيا والآخرة [4]، وجملة (وأنتم الأعلون) على ذلك جملة حالية آنية، أي: والحال ((أنّكم أعلى شأناً منهم، فإنّكم على الحق، وقتالكم لله، وقتلاكم في الجنة، وأنّهم على الباطل وقتالهم للشيطان، وقتلاهم في النار، أو لأنّكم أصبتم منهم يومَ بدر أكثرَ مما أصابوا منكم اليوم))[5] ويعضد المعنى الثاني ما ورد في الآية اللاحقة ﴿إِنْ يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِثْلُهُ وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ آَمَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنْكُمْ شُهَدَاءَ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ﴾[6].

أو أن تكون جملة الحال جملة مستقبلية، أي: وأنتم الأعلون في عاقبة أمركم[7]، ويعضد ذلك قوله تعالى: ﴿وإنَّ جندَنا لهم الغالبون﴾[8].

وجواب جملة الشرط (إن كنتم مؤمنين) إما أن يكون محذوفاً دلَّ عليه ما قبله على ما تقرر من نحو البصريين، من أنه لا يجوز تقدم جواب الشرط على أداة الشرط وفعل الشرط للأدلة المذكورة في كتب النحويين[9]. أو أن يكون جواب الشرط النفي المتقدم على ما قرّره نحويو الكوفة [10]، أو أن تكون جملة فعل الشرط مكتفية المعنى، فليس بها حاجة إلى جواب، كما قرَّره الزمخشري فيما سبق ذكره [11].

(1) ينظر: المحرر الوجيز، ابن عطية 5 / 202، وروح المعاني 14 / 60.
(2) سورة آل عمران / الآية 139.
(3) الكشاف 1 / 418.
(4) ينظر: أنوار التنزيل 2 / 39، والسراج المنير 1 / 249، والتفسير الوسيط لطنطاوي 2 / 273.
(5) الكشاف 1 / 418.
(6) سورة آل عمران / الآية 140.
(7) ينظر: الكشاف 1 / 418، والسراج المنير 1 / 249.
(8) سورة الصافات / الآية 134.
(9) ينظر: الإنصاف في مسائل الخلاف (م 86) 2 / 621 – 622، وتوضيح المقاصد والمسالك بشرح ألفية ابن مالك، للحسن بن قاسم المرادي 3 / 1277
(10) ينظر: شرح الكافية الشافية، ابن مالك 3 / 1601.
(11) ينظر: الكشاف 4 / 51.

والاحتمال الثاني: الذي ذكره الزمخشري لجملة الشرط أنها متعلقة بالجملة الاسمية (وأنتم الأعلون) على معنى الحال، أي: حالكم أنكم أنتم الغالبون على عدوكم إن تحقق منكم الإيمان والتصديق بما يعدكم الله تعالى به ويبشركم به من الغلبة، أو على معنى الاستئناف، أي: نصرتكم متحققة إن كان إيمانكم متحققا [1].

ويبدو للباحث أن تعلق الشرط بجملة النهي أولى لما يأتي:

1- أن الجملة الاسمية الحالية (وأنتم الأعلون) واقعة موقع التعليل للنهي عن الوهن، والحزن المتعلق بهما الشرط، أي: لا تهنوا ولا تحزنوا، لأنكم الأعلون فآمنوا بذلك.

2- أن النظر في السياق الخارجي للآية الكريمة كونها نزلت بعد هزيمة المسلمين في واقعة أحد، و خسارة المعركة، واستشهاد أكثر من سبعين من سراتهم وشجعانهم، ووقوع ما وقع في عقر دارهم، يبين أن النهيين المذكورين إنما هما نهيان حقيقيان لا مقدران ولا متوقعان، وأن الوهن والحزن من أهل العقيدة قبيح عقلاً مع إخبار الله سبحانه وتعالى إياهم وبشارتهم بالعلو، فالنهي هنا نهي تأديب للمؤمنين، وإقرار لكيفية وهنهم وحزنهم، ففي الخطاب تنبيه على محاسبة النفس والاستعداد للقاء الشدائد وأخذِ الحيطة عند اقتحام المصاعب، فالتعلُّق في قوله (إن كنتم مؤمنين) المراد منه تهييج نفوس أهل العقيدة، ليكون تمسكهم بالإيمان أشد وأقوى، فلا يهنوا ولا يحزنوا لما يصيبهم من دوائر الابتلاء المادي والمعنوي [2].

وفي قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقُولَنَّ لِشَيْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَلِكَ غَدًا (23) إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ وَاذْكُرْ رَبَّكَ إِذَا نَسِيتَ وَقُلْ عَسَى أَنْ يَهْدِيَنِ رَبِّي لِأَقْرَبَ مِنْ هَذَا رَشَدًا﴾[3]. وبيّن الزمخشري أنّ: (((إلاَّ أن يَشاءَ الله) متعلق بالنهي، لا بقوله: (إنّي فاعل)، لأنّه لو قال: إني فاعل كذا إلا أن يشاء الله، كان معناه: إلا أن تعترض مشيئة الله دون فعله، وذلك مما لا مدخل فيه للنهي))[4]. وفسّر الزمخشري تعلقه بالنهي بوجهين، أحدهما: لا تقولن ذلك القول، إلا أن يشاء الله أن تقوله، أي: بأن يأذن لك فيه، والاستثناء في (إلا أن يشاء الله) على ذلك متصل، يحقق فائدة العموم بعد الخصوص، فإذنُ اللهِ بالفعل مستثنى من عموم النهي عن القول بالفعل.

والثاني: لا تقول هذا القوم إلا مقروناً أو متلبساً بلفظ (إن شاء الله) يعني بمشيئة الله، والاستثناء هنا متصل أيضاً، في موضع الحال[5]. والتقدير: إلا بأن يشاء الله، فالمصدر منصوب بنزع الخافض، والجار والمجرور في موضع النصب على الحال[6]. وزاد الزمخشري وجها ثالثا، وهو أن يكون (إلا أن يشاء الله) بمعنى: ولا تقولنّه أبداً، ومنه قوله تعالى: ﴿ما يكون لنا أن نعود فيها إلا أن يشاء الله ربنا﴾[7]، والنهي في هذا الوجه نهي إرشاد من الله لنبيه [8]. والاستثناء على هذا منقطع، وموضع (أن يشاء الله) النصب على الاستثناء والتقدير: لا تقولنّ ذلك في وقت إلا وقت أن يشاء الله، أي: يأذن، فحذف الوقت وهو مقصود لدلالة السياق عليه[9]. ولم يرتضِ أحمد بن المنير الوجه الثالث، وأوجب حمل معنى الآية على أحد الوجهين الأولينِ، قال: ((ولا بُد من حمل الكلام على أحد الوجهين المذكورين – الأول والثاني – ولولا ذلك لكان المعنى على الظاهر ببادئ الأمر: ولا تقولنَّ لشيءٍ إني فاعل ذلك غداً، إلا أن يشاء الله أن تقول هذا القول، وليس الغرض كذلك، وإنما الغرض النهي عن هذا القول إلا مقروناً بقول المشيئة))[10].

(1) ينظر: المصدر نفسه 1 / 418، وغرائب القرآن 2 / 264، وجامع البيان في تفسير القرآن 1 / 295، والسراج المنير 1 / 249، وفتح القدير 1 / 440.
(2) ينظر: الميزان في تفسير القرآن 4 / 28، ومواهب الرحمن 6 / 387، والتفسير الوسيط لطنطاوي 2 / 273.
(3) سورة الكهف: الآيتان 23 – 24.
(4) الكشاف 2 / 714.
(5) ينظر: المصدر نفسه 2 / 714، ومفاتيح الغيب 21 / 451، والتسهيل لعلوم التنزيل 1 / 463، والبحر المحيط 7 / 162، وتفسير ابن عرفة 3 / 85.
(6) ينظر: إعراب القرآن وبيانه 5 / 568.
(7) سورة الأعراف / الآية 89.
(8) ينظر: الكشاف 2 / 714، والبحر المحيط 7 / 162.
(9) ينظر: إعراب القرآن، الباقولي 3 / 901، والتبيان في إعراب القرآن 2 / 843.
(10) الانتصاف فيما تضمنه الكشاف (مطبوع في هامش الكشاف) 2 / 714.

ولا أرى مانعاً من قبول الوجه الثالث، ذلك أنه يتطابق وسبب نزول الآية الكريمة، وهو أنه حين قالت اليهود لقريش: سلوه عن الروح، وعن أصحاب الكهف، وذي القرنين، فسألوه – أي الرسول (صلى الله علية وآله) –، فقال: ائتوني غداً أخبركم ولم يستثنِ، فأبطأ عليه الوحي حتى شقّ عليه وكذبته قريش [1].وقد أجمع أغلب المفسرين أن في الكلام حذفاً يقتضيه الظاهر ويحسنه الإيجاز[2]، وتقديره: (إلا أن تقول: إلا أن يشاء الله)، أو:(إلا أن تقول: إن شاء الله)، فجعل قوله: (أن يشاء) في معنى (إن شاء) وهو ما حمل على المعنى[3]. ويرى الباحث أن هذا الكلام يتطابق وما ذهب إليه الزمخشري في تعلق قوله تعالى: (إلا أن يشاء الله) بـ(لا تقولن) وهو ما يفسره المعنى، بأن لا يقول أحدٌ: إني فاعل، أو أفعل ذلك غدا، أو أقول شيئاً غدا، إلا أن يكون ذلك مقروناً بالقول (إن شاء الله)، ويجوز لك إذا نسيت أن تقول مع العزم مع الفعل (إن شاء الله)، أن تقوله ولو بعد مدة من الوقت، وهذا يدل عليه قوله تعالى: (واذكر ربك إذا نسيت)، وهذا القول غير مختص بوقت معين[4]، ومعناه: إذا نسيت الاستثناء، ثم تذكرت فاستثنِ [5]، ويبدو أن الزمخشري انفرد بهذا التعلُّق، إذ لم أجد في كتب التفسير مَن قال به، وهذا التعلُّق يتطابق ومعنى الآية الشريفة، فالنهي عن قول شيء أو فعله يتطابق وحال النبي (صلى الله عليه وآله)، فإرادته ليست بمعزل عن إرادة الله عز وجل، بل هي مرتبطة بالمشيئة الإلهية، وهذا الارتباط إنما هو ارتباط تشريف لمقامه (صلى الله عليه وآله)، فضلاً عن ما يحتمله الاستثناء (إلا أن يشاء الله) من حكم إلهي للبشر، إذ لا يصح لأحد أن يقطع في أخباره المستقبلية، ومعقودات نفسه، لأن قدرته محدودة مع احتمال ظهور الموانع المختلفة.

4- تعلق جملة فعلية بشبه جملة ظرفية:

في قوله تعالى في شأن الحشر: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ كَأَنْ لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا سَاعَةً مِنَ النَّهَارِ يَتَعَارَفُونَ بَيْنَهُمْ قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِلِقَاءِ اللَّهِ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ﴾[6].

ذكر الزمخشري أن (يتعارفون) ((إمّا أن تتعلق بالظرف. وإما أن تكون مبينة لقوله: (كَأَن لَّمْ يَلْبَثُواْ إِلاَّ سَاعَةً)، لأنّ التعارف لا يبقى مع طول العهد وينقلب تناكراً)) [7]. وعلى الوجه الأول، أي: تعلق الجملة الفعلية (يتعارفون) بالظرف (يوم يحشرهم) يكون المعنى: تعارفون يوم يحشرهم، وقد اختُلِفَ في نوع هذا التعارف على أقوال منها [8]:

1- يعرف بعضهم بعضاً كما كانوا يتعارفون في الدنيا، كأنهم لم يتعارفوا إلا قليلاً، وذلك عند خروجهم من القبور ثم تنقطع المعرفة بينهم، لهول ما يشاهدونه في ذلك اليوم العصيب.

2- يتعارفون بينهم أنَّ مدة لبثهم في الدنيا أو قبورهم ما كانت إلا مدة قصيرة لا قدر لها، وإنما استقلوها لهوان أعمارهم عليهم وقد أفنوها بالكفر والعصيان، أو لقصرها قبالة مدة الحساب والجزاء، ويشهد لهذا المعنى ما ذكرته الآية الكريمة من بيان حالهم يوم حشرهم وتشبيه لبثهم بأنه ساعة من النهار.

3- يُعَرِّفُ بعضهم بعضاً بما كانوا عليه مدة لبثهم من الخطأ والكفر، فيقول: كل فريق للآخر: أنت أضللتني وأغويتني يوم كذا، فهو – على هذا – تعارف تقبيح وتعنيف وتباعد وتقاطع، لا تعارف عطف وشفقة. واعترض بعض المفسرين[9] على المعنى الذي يؤول إليه هذا التعلُّق بأن يوم الحشر لا تعارف فيه، مستدلين بقوله تعالى: ﴿يَوْمَ تَكُونُ السَّمَاءُ كَالْمُهْلِ (8) وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ (9) وَلَا يَسْأَلُ حَمِيمٌ حَمِيمًا﴾[10]، وأجاب عن ذلك الرازي من جهتين[11]:

(1) ينظر: الكشف والبيان عن تفسير القرآن 6 / 164، والتفسير الوسيط للواحدي 3 / 143، ومعالم التنزيل في تفسير القرآن، البغوي 3 / 186، والكشاف 2 / 715، والجامع لأحكام القرآن 10 / 386.
(2) ينظر: تأويلات أهل السنة 7 / 157، والنكت والعيون 3 / 298، والتفسير الوسيط للواحدي 3 / 143، وإعراب القرآن وبيانه 5 / 563.
(3) ينظر: إعراب القرآن، الباقولي 3 / 901، والتبيان في إعراب القرآن 2 / 843.
(4) ينظر: مفاتيح الغيب 21 / 451.
(5) ينظر: معالم التنزيل في تفسير القرآن 3 / 186.
(6) سورة يونس / الآية 45.
(7) الكشاف 2 / 349.
(8) ينظر: مفاتيح الغيب 17 / 260، وأنوار التنزيل 3 / 114، والبحر المحيط 6 / 64 – 65، واللباب في علوم الكتاب 10 / 342، وفتح القدير 2 / 510.
(9) ينظر: مفاتيح الغيب 17 / 260، والبحر المحيط 6 / 56، وفتح القدير 2 / 510.
(10) سورة المعارج / الآيات 8 – 10.
(11) ينظر: مفاتيح الغيب 17 / 260.

الأولى: أن سؤال الحميم حميمه إنما هو سؤال الرحمة والعطف، وهؤلاء الكفار إنما يكون تعارفهم تعارف تقبيح وتعنيف وتباعد وتقاطع، والفرق بينهما بيِّن.

والجهة الاخرى: أن مواطن الحشر والقيامة ليست موطناً واحداً، فهم يتعارفون في موطن البعث، ولا يتعارفون في موطن آخر، حين تنقطع المعرفة، فلذلك لا يسأل حميمٌ حميماً.

أما الوجه الثاني الذي ذكره الزمخشري في تفسير الآية الكريمة، ففيه أن جملة (يتعارفون) لا تعلق لها بالظرف، بل هي جملة حالية بيانية لمدة لبثهم القصيرة، على تقدير: لم يلبثوا يتعارفون إلا ساعة من النهار، ذلك أن مدة التعارف لا تطول، إذ تنقطع بسرعة، وتنقلب إلى إنكار بعضهم بعضا، وقد تبعه في هذا التوجيه أكثر المفسرين[1]. ويرى الباحث أن جملة (يتعارفون) يمكن أن تكون جملة استئنافية، فبعد أن بيّنت الآية الكريمة حال هؤلاء يوم حشرهم بجملة تشبيهية استأنفت بإخبار إلهي بأنه يقع التعارف بينهم في ذلك اليوم، أما نوع هذا التعارف فمرد أمره إلى مَن أخبر به، فلا داعي لكثرة التأويل والتقدير لتحصيله.

خلاصة البحث

عرض البحث لتعلق الجمل الاسمية والفعلية عند الزمخشري في الكشاف، وقد تبين أن الزمخشري قد استوفى الدراسة التطبيقية لهذا المبحث الذي لم يفصل فيه غيره. وقد أثبت البحث أن الزمخشري قد انفرد برأيه في بيان مواضع تعلق الجمل، بمختلف تفاصيلها، كتعلق الجملة الاسمية بالجملة الاسمية أو بالفعلية، أو بمحذوف مقدر بجملة، وكذلك تعلق الجملة الفعلية بجملة فعلية أو باسمية أو بشبه جملة ظرفية. ولعل مرد اجتهاد الزمخشري هذا إلى أن من سبقه من المفسرين وأصحاب معاني القرآن لم يلتفتوا إلى هذا النوع من التعلق إلا بإشارات قد ترد قليلا في مصنفاتهم. أما الزمخشري فقد قدّم دراسة تطبيقية واسعة لتعلق الجمل ويعضد ذلك أن المفسرين بعده نقلوا ما ذكره في التعلق نصاً أو بتصرف.

مصادر البحث ومراجعه

القرآن الكريم

- إرشاد العقل السليم
- إعراب القرآن: الأصبهاني
- إعراب القرآن: الباقولي
- إعراب القرآن النحاس
- إعراب القرآن وبيانه
- الإنصاف في مسائل الخلاف بين النحويين البصريين والكوفيين: أبو البركات الأنباري(ت577هـ)، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد، المكتبة التجارية الكبرى، مصر، (د.ت).
- أنوار التنزيل
- البحر المحيط: أبو حيان النحوي(ت 745هـ)، تحقيق عادل أحمد عبد الموجود وعلي محمد عوض، شارك في تحقيقه د. زكريا عبد المجيد النوتي ود. أحمد النجولي الجمل، دار الكتب العلمية، بيروت، 1993م.
- التبيان في إعراب القران: أبو البقاء العكبري(ت 616هـ)، تحقيق علي محمد البجاوي، دار الشام للتراث، بيروت، (د.ت).
- التحرير والتنوير
- التسهيل لعلوم التنزيل
- تفسير ابن عرفة
- التفسير المظهري

(1) ينظر: المحرر الوجيز 3 / 123 ومفاتيح الغيب 17 / 259، وأنوار التنزيل 3 / 114، واللباب في علوم الكتاب 10 / 342، وجامع البيان، الأيجي 2 / 137، والبحر المديد 2 / 475، والتفسير المظهري 5 / 31، وفتح التقدير 2 / 510.

ـ تفسير المنار
ـ التفسير الوسيط
ـ تهذيب اللغة: أبو منصور الأزهري (ت 370هـ) جـ 15، تحقيق إبراهيم الأبياري، دار الكاتب العربي، القاهرة، 1967م.
ـ توضيح المقاصد والمسالك بشرح ألفية ابن مالك: حسن بن قاسم المرادي (ت 749هـ)، تحقيق أحمد محمد عزوز، المكتبة العصرية، بيروت، 2005م
ـ جامع البيان الايجي
ـ الدر المصون
ـ ديوان جرير بن عطية: تحقيق نعمان أمين طه، دار المعارف، مصر، 1969م.
ـ روح المعاني في تفسير القرآن الكريم والسبع المثاني: شهاب الدين أبو الثناء الآلوسي (ت 1270هـ)، إدارة الطباعة المنيرية، مصر (د.ت).
ـ السراج المنير
ـ شرح الكافية الشافية: محمد بن عبد الله بن مالك(ت 672هـ)، تحقيق: د. عبد المنعم أحمد هريدي، دار المأمون للتراث، دمشق، (د.ت).
ـ العذب المنير
ـ غاية الاماني
ـ الفائق في غريب الكشاف
ـ فتح القدير
ـ الكشاف عن خصائص غوامض التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل: الزمخشري (جار الله محمود بن عمر ت 538هـ)، دار الكتاب العربي بيروت، 1947م.
ـ اللباب
ـ لسان العرب: محمد بن مكرم بن منظور(ت 711هـ)، دار صادر، بيروت، 1968م.
ـ المجتبى من مشكل اعراب القران
ـ المحرر الوجيز
ـ مدارك التنزيل
ـ معالم التنزيل في تفسير القران
ـ معاني القرآن وإعرابه: محمد بن سهل الزجاج(ت311هـ)، تحقيق عبد الجليل عبده شلبي، عالم الكتب، بيروت، 1988م.
ـ مفاتيح الغيب: فخر الدين الرازي (ت606هـ)، دار الفكر للطباعة والنشر، بيروت، 1981م.
ـ مواهب الرحمن في تفسير القرآن: السيد عبد الأعلى السبزواري، مطبعة شريعت، إيران، ط 2، 2007م.
ـ الميزان في تفسير القرآن: محمد حسين الطباطبائي(ت1402هـ)، منشورات مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، بيروت، 1997.
ـ النكت والعيون
ـ النهاية في غريب الحديث والاثر: المبارك بن محمد بن الأثير(ت 606هـ)، تحقيق محمود محمد الطناحي وطاهر أحمد، المكتبة العلمية، بيروت، 1979م